

**فليقبل تواضعك كلماتي يا أبت يوسف**  
**في تأبين الشيخ يوسف، رئيس دير القديس نكتاريوس في روسكو، نيويورك**  
**بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)**

الراهب رجل صلاة. وفعالية صلواته تظهر بانسكاب النعمة الإلهية عليه، ما ينعكس فيه سلاماً داخلياً لا تهزّه العواصف، وفرحاً عميقاً لا تؤثر فيه الأحقاد، وحسن استقبالٍ وضيافةٍ يفوقان أرقى الأصول التي تتعاطاها الطبقة المخملية. إنّها ضيافة المسيح ذاته، تلك التي تخلو من أيّ مجاملةٍ بشرية أو آدابٍ اجتماعية.

أمّا الوجه المنور والبشوش الذي يعكس صفاء السماء وملكوت الله على الأرض، فيمنحه الله لبعض الأمناء له. كنت ترى هذه الصفات مجتمعةً في وجه الشيخ يوسف الذي تجلّت فيه نعمٌ من الله كثيرة. أتجراً على ذكرها الآن بعدما صار في ديار الرب.

هذا ما رأيته فيك مذ التقيتك للمرة الأولى وازداد خلال سنواتٍ ثلاث وحتى اللقاء الأخير. لم تتغيّر ولم تتبدّل ولم يشكّل المرض الأليم، الذي عانيت منه في السنوات الأخيرة، عائقاً يمنع النور السماوي من الإشراق في وجهك لحظة واحدة، لا بل كان إلى ازدياد. ولم تحجب ألامك الجسدية ابتسامة وجهك البالغة الرقة والشفافية!

كم خجلت من نفسي عندما علمت متأخراً بأنك أجّلت تلقّي علاجك الكيماوي يوماً أو اثنين من أجل أن تسمع اعترافي الأخير، وخاصةً حينما رأيت علامات التعب بادية عليك. سألتك آنذاك: أنتوجع كثيراً يا أبت؟ ولئلا تقلقني عليك، أحببتي مداورةً، وبرقةً سماوية وابتسامة ليست من هذا العالم، "تتعبني جرعة العلاج الكيماوي، فأقضي بعدها عدّة أيام وكأنتي ميت!" كان جوابك سهماً طعنني بكمّ المحبة التي حملها!

علّمتني بسلوكك أهميّة الأمانة للربّ حتى الرمم الأخير. ومن خلالك وعيتُ أنّ الأمانة وما يصحبها من أفعال وأتعاب هي التي تستجلب نعمة الله. هذا ما كنت قد تعلّمته أيضاً من أبائنا القديسين، لكنّي، في شخصك، رأيته متجسداً. عرفتُ منك أنّنا نجاهد ونحن مدركون بأنّ أفعال جهادنا لا تعطينا استحقاقاً أمام الله، لكنّه له المجد يرى أتعابنا من أجله، فيمنحنا نعمته التي تقدّس حياتنا وتعكس نوره فينا. كذلك عرّفنتي يا أبت أنّ إلها لا يمنحنا هذه النعمة دوماً كي نحفظنا من الكبرياء. لكن ما لمستته فيك، أنّه أمطر نعمه عليك بغزارةٍ وأدامها فيك بوفرة، بعدما رأى أتعابك أمامه وأمانتك له.

ظهرت نعمته فيك في الفرح الذي تميّز وجهك به، ونقلته إلى رهبانك المجاهدين. نعرف يا أبتِ أنّه بالفرح بدأ إنجيل ربّنا "إني أبشركم بفرح عظيم" (لو ٢: ١٠)، وبالفرح خُتم أيضاً "ورجعوا إلى أورشليم وهم في فرح عظيم" (لو ٢٤: ٥٢). ونعرف أنّ هذا الفرح الذي يتكلّم عليه الإنجيل فرحٌ من الله لا منّا. ومع ذلك كثيراً ما نبحت عنه في الأماكن الخطأ.

أمّا أنت فأعطيت ذاتك بكلّيتها لربّ الفرح، وهو بدوره منحك هذه العطية التي ذقتها بالملء، لذا فإننا ننتظر أن تطلبها لنا بمحبّتك، من الربّ الذي صرت إلى جواره، عساه، بطلباتك، يُنعم بها علينا وعلى رهبانك بالأخصّ، فيستمرّ حضورك الفرح فيما بينهم، وعبرهم ينتقل إلينا. هذا ما يعزّي أولادك يا أبتِ. كلّي رجاء بأنك لن تبخل علينا بهذا الطلب وأنت العالم بحاجتنا جميعاً إلى الفرح الحقيقي! وأن ما من عزاء وابتهاج حقيقيين سوى في حضور الربّ الفرح وسطنا. أنت خير من ذاقه. أمانتك له وأتعابك أمامه استجلبنا نعمته عليك بوفرة، وتواضعك حفظها فيك على الدوام.

أيها الملاك الأرضي، كنت البركة العظمى التي منحني الله إيّاها من بعد مجيئي إلى أميركا. كنت تعزيتي الكبرى في خدمتي الجديدة. كم سأفتقدك وسأفتقد نصائحك! ولو أنني واثق من أن حضورك في آباء الدير ورهبانه سيبقى مستمراً، وأتني في تلك العائلة التي منحتني بركة أن أكون بالروح واحداً منها، سأجد ما كنت تمنحني إيّاه دوماً.

اليوم، بعد أن تحرّرت بالكلية، وصرت له بالتمام، كلنا رجاء وثقة بأنّه سيُسمعك كلمته المباركة: "ادخل إلى فرح ربّك" لأنك "كنت أميناً في القليل سأقيمك على الكثير." عزّاوننا عن رحيلك عنّا، أنّك الآن تقيم في النور الذي لا يخبو، ذلك الذي سيتألق لمعانه فيك أكثر فأكثر.

من هناك، من ملكوت الله، اذكرنا، نحن غير المستحقين. من هناك أرجو أن تذكرني ورعايا المسيح التي سلّمني خدمتها، وأن تسامحني لأنني لم أتمكّن من المشاركة جسدياً في صلاة تجنيزك.